السلطان أحمد الثالث

فترة الحكم: ١٧٠٣- ١٧٣٠

السلطان العثماني الثالث والعشرون

الألقاب والأسماء الشعرية: نجيب (بمعنى النبيل، شريف النسب)

اسم الأب: السلطان محمد الرابع

اسم الأم: السلطانة الوالدة ربيعة كُولنُوش أمة الله

محل وتاريخ الميلاد: حاجي أغلو بازاري (دبروجا)، ٣١ ديسمبر/كانون الأول سنة ١٦٧٣

العمر عند اعتلاء العرش: ٣٠ عاما

تاريخ الوفاة: ٢٤ يونيو/حزيران سنة ١٧٣٦

مكان الوفاة وموقع القبر: إسطنبول، ودفن في مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بالقرب من المسجد الجديد بإسطنبول

أبناؤه: عبد الحميد الأول، ومصطفى الثالث، وسليمان، وبايزيد، ومحمد، وإبراهيم، ونعمان، وسليم، وعلي، وعيسى، ومراد، وسيف الدين، وعبد المجيد، وعبد الملك

بناته: أمينة (بنتان بنفس الاسم)، وربيعة (بنتان بنفس الاسم)، وحبيبة، وزُبَيدة، وأسماء، وخديجة، ورُقية، وصالحة، وعاتكة، وريحان، وأَسيمة، وفردانه، ونظيفة، ونائلة، وعائشة، وفاطمة، وأمة الله، وأُم سلمة، وأمينة، ورقية (ثلاث بنات بنفس الاسم)، وزينب (ثلاث بنات بنفس الاسم)، وصبيحة، وأم كلثوم (ثلاث بنات بنفس الاسم)، وبَيهان.

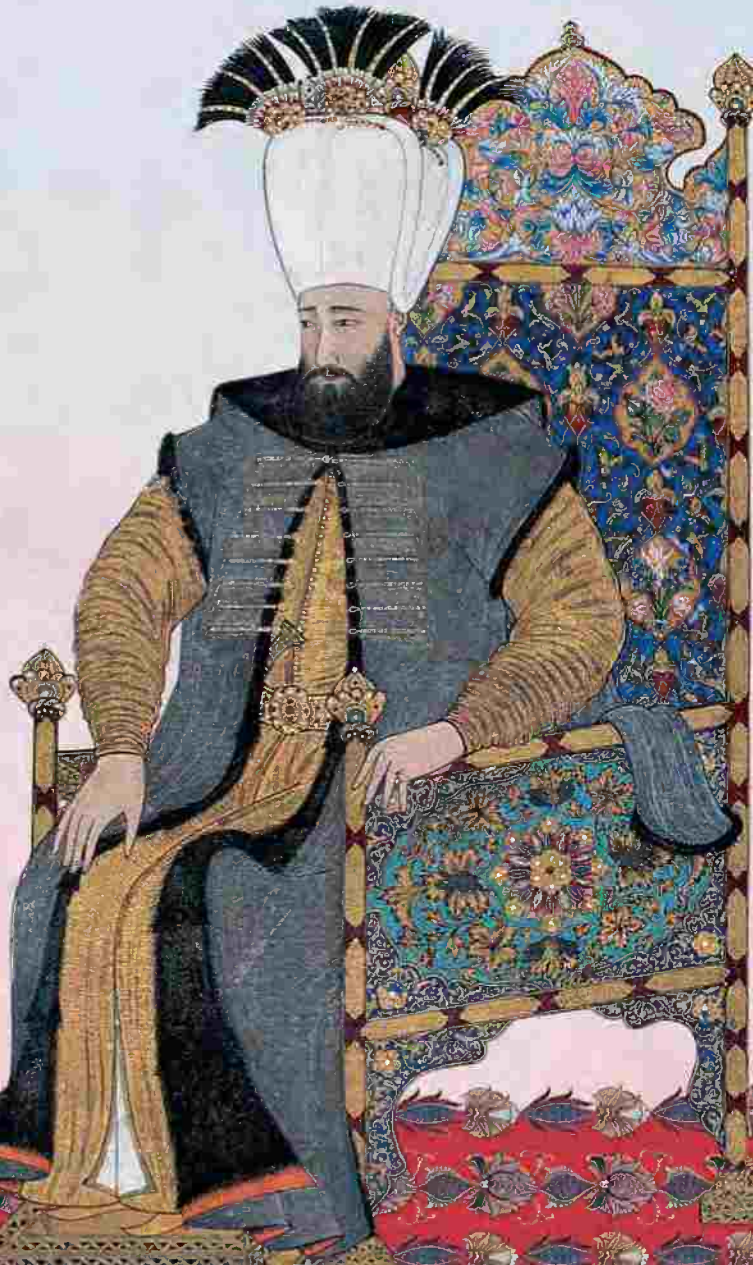

جزء من لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث جالسا على العرش، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

احتُجز الأمير أحمد أولا بقصر "طوب قابي" ثم نُقل إلى أدِرْنه خلال عهد عمّه السلطان سليمان الثاني. وعندما وقعت حادثة أدِرْنه خلف الأمير أحمد شقيقه السلطان مصطفى الثاني على العرش في ١٧ أغسطس/ آب عام ١٧٠٣. ورغم أنه داهن هؤلاء الذين أجلسوه على العرش وعينهم في مناصب مؤقتة، فقد أخذ في نهاية الأمر بنصيحة أخيه وتفادى تسلطهم من خلال خلعهم من مناصبهم واحدا تلو الآخر.

بقي السلطان أحمد الثالث محايدا تجاه الحروب الروسية السويدية، التي نتجت عن أمور تتعلق بوضع مملكة بولندا في أوروبا. غير أن العلاقات العثمانية-الروسية تقطعت بعد ذلك عندما لجأ تشارلز السابع ملك السويد إلى العثمانيين بعد هزيمته أمام بيترو الأول قيصر روسيا. ولم يخبر الصدر الأعظم علي جُورْلُولو باشا السلطان بدخول تشارلز إلى البلاد. وهاجم بيترو الأول الأراضي العثمانية عام ١٧١٠ منتهكا معاهدة إسطنبول التي أنهت الحرب بين العثمانيين والروس عام ١٧٠٠، فأعلن السلطان أحمد الثالث الحرب على روسيا.

ونجح الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم بلتاجي محمد باشا في هزيمة الجيش الروسي بقيادة القيصر بيترو الأول بشكل ساحق بالقرب من نهر بروت، وذلك بالاتحاد مع القوات القرمية. ولما وقع الروس في مأزقِ بروت، طلبوا الهدنة. لم يكن بَلتاجي محمد باشا يستطيع الوثوق بمقدرة الانكشارية على مواصلة القتال ولذلك فقد قبل عرض روسيا ووقع معاهدة بروت عام ١٧١١. والواقع أن محمد باشا كان يستطيع توقيع معاهدة تحوي بنودا وشروطا أفضل بكثير لو أنه لم يقبل بالهدنة على الفور ويستأنف القتال.

دب النشاط والحماس في عروق العثمانيين لانتصار بروت بعد أن كانوا قد مروا بمرحلة من الإحباط الشديد والحزن بسبب سلسلة خسائر جيشهم المتوالية في الحروب. وأخلف الروس المعاهدة فتمت تنحية بَلتاجي محمد باشا. وحشد أحمد الثالث جيشه وتوجه لأدِرْنه لشن حملة أخرى ضد روسيا. لكن وساطة السفيرين البريطاني والهولندي حالت دون محاربة الروس مرة أخرى. وأعيدت منطقة آزاق للعثمانيين بموجب معاهدة بروت، التي كان الروس قد حصلوا عليها بموجب معاهدة إسطنبول.

وهذا النجاح الذي أحرزه العثمانيون بث فيهم روح الأمل وفكرة أن الأراضي التي فقدوها بموجب معاهدة كارلوفجا يمكن استرجاعها أيضا. وظلت تلك الفكرة مسيطرة حتى سقوط الدولة

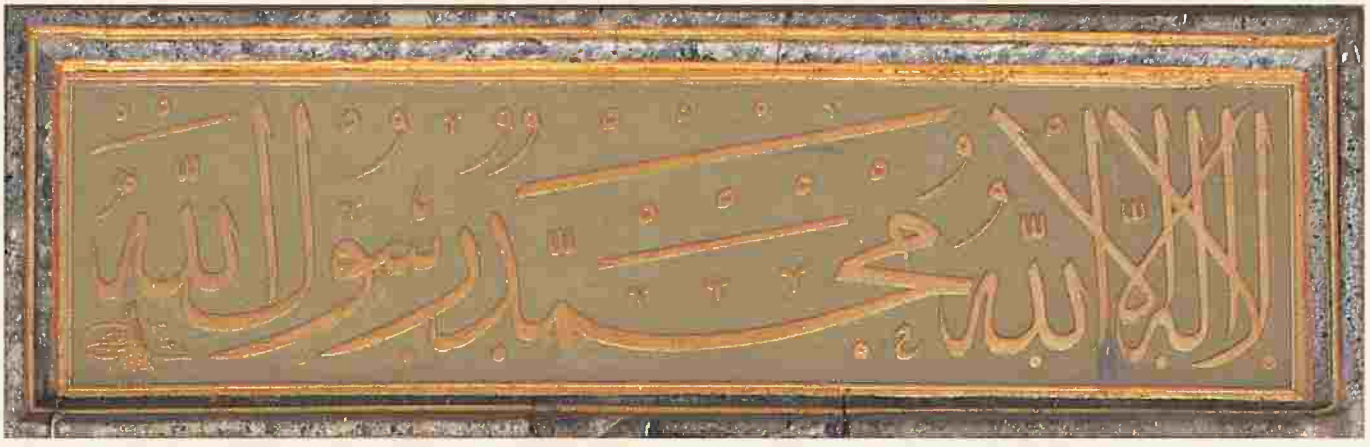

تصميم بخط اليد لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) كتبه السلطان أحمد الثالث عند مدخل جناح الأمانات المقدسة بقصر "طوب قابي".

العثمانية. وانجرف العثمانيون في سلسلة من المعارك المتلاحقة لاستعادة الأراضي التي فقدوها، لكن ذلك لم يثمر في النهاية سوى خسارة أكبر وأكبر في الأراضي.

وانطلاقا من نتائج معاهدة بروت سعى العثمانيون لاستعادة شبه جزيرة المُورَة التي كانت قد حصلت عليها البندقية بموجب معاهدة كارلوفجا في عام ١٦٩٩. وبدءوا في تحين أفضل مناسبة لإعلان الحرب على البندقية. وجاءت المناسبة عندما استحث البندقية سكان الجبل الأسود على الثورة، وهاجم البنادقة الأسطول العثماني بقيادة أَنيشْته حسن باشا. ونتيجة لذلك كلف السلطان أحمد الثالث صدره الأعظم علي باشا بمهمة فتح جزر البنادقة في البحر المتوسط والمورة. وسار السلطان أحمد الثالث مع الجيش حتى أدِرْنه وودعه من هناك.

رحب العثمانيون بأنباء فتح القوات العثمانية للمورة، ولكن على الجانب الآخر أثار فتح العثمانيين للمورة غضب النمسا، فانضمت القوات النمساوية إلى صفوف العدو في الوقت الذي كان العثمانيون يحاصرون فيه جزيرة كورْفو في البحر الأيوني. وكان الصدر الأعظم داماد علي باشا قد استشهد في معارك بَتَرفارادين التي تبين صعوبتها الشديدة على الجيش العثماني. وفي نهاية المطاف أنهى السلطان حصار جزيرة كورفو. ولم يحرز الجيش العثماني أي نصر عسكري

نافورة في الجدار أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث

مكتبة السلطان أحمد الثالث، التي أنشأها السلطان باسمه وسط الفناء الثالث في قصر "طوب قابي".

ضد النمساويين، كما تبيّن أن الحرب الأهلية في المجر -التي اندلعت عندما شجع العثمانيون ملك ترانسيلفانيا على الانقلاب على النمسا- لا طائل من ورائها. ولم تستطع القوات العثمانية زفّ أخبار الانتصار الذي طال انتظاره للسلطان. وعندما توجهت القوات النمساوية بفاعلية جنوبا إلى نيش، كان الصدر الأعظم "نَوْشَهِرْلِي داماد إبراهيم باشا" مجبرا على توقيع معاهدة بَسَاروفجا في عام ١٧١٨. ونصت تلك المعاهدة على سيطرة النمساويين على غرب والاشيا بما فيها بلجراد وأجزاء من صربيا الشمالية، بينما يستعيد العثمانيون سيطرتهم على المورة. وبذلك قل التهديد البندقي في البحر المتوسط لصالح الدولة العثمانية. ورغم أن معاهدة بساروفجا جنبت العثمانيين خسائر أكبر في الأراضي في صربيا وأدت إلى فترة سلام طويلة مع النمسا، فقد كانت علامة فارقة على نهاية التوسع العثماني باتجاه الغرب. ومنذ ذلك الحين سوف نشهد تغيرا في السياسة العثمانية تجاه أوروبا، حيث سينتقل العثمانيون من سياسة الفتوحات إلى سياسة دفاعية تهدف إلى الحفاظ على الأراضي التي يمتلكونها.

وقعت الأحداث الأكثر أهمية في السنوات الأخيرة لعهد السلطان أحمد الثالث في الشرق؛ حيث استولى الأفغان على أصفهان من فارس، وتوغلت روسيا خلال فارس بهدف التوسع جنوبا إلى الخليج العربي،

مضطهدة مسلمي شيروان وداغستان. وعندما استغاث المسلمون المضطهدون في النهاية بالسلطان أحمد الثالث خليفة المسلمين جميعا، ركز أحمد الثالث تركيزا شديدا على بلاد فارس، التي كانت تعاني بالفعل من أزمة داخلية بسبب الصراع بين الطوائف الدينية المختلفة، وهو الصراع الذي كان على وشك الانتشار في جميع أرجاء المنطقة، وكان السلطان يبحث عن طرق لتأمين الحدود الشرقية لدولته. ولذلك قام الجيش العثماني باختراق الأراضي الفارسية من ثلاث جهات مختلفة في وقت واحد، وضم الجيش المدن الفارسية الغربية، بينما استولت القوات الروسية على دربند وباكو. وفي النهاية واجه الجيش العثماني القوات الروسية في شرق القوقاز. لكن الوساطة الفرنسية منعت بفاعلية نشوب معركة ضارية بين العثمانيين والروس، فوقع الطرفان اتفاقية إسطنبول في عام ١٧٢٤ بدلا من الحرب.

ووفقا للاتفاقية اقتسم العثمانيون والروس عدة مدن فارسية فيما بينهم. وفي النهاية وافق الشاه طهماسب الثاني – الذي هزمه الجيش العثماني – على بنود معاهدة إسطنبول. لكن خليفته أشرف خان رفض

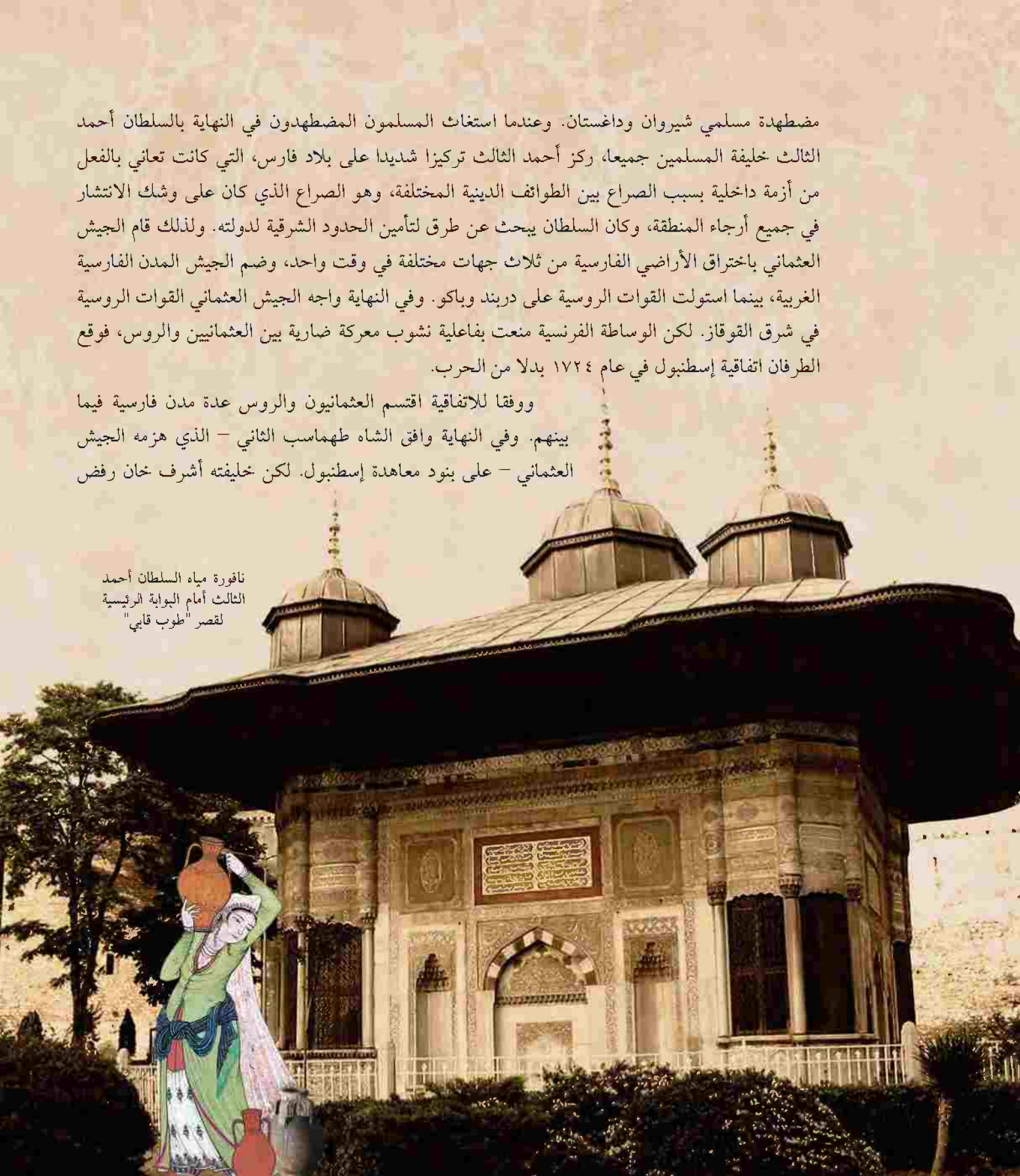

نافورة مياه السلطان أحمد الثالث أمام البوابة الرئيسية لقصر "طوب قابي"

بنود المعاهدة لاحقا. وواجهت القوات الفارسية الأفغانية المشتركة القوات العثمانية بالقرب من نهاوند وهزمتها هزيمة ساحقة. وتعد تلك الهزيمة نقطة تحول في سيادة السلطان أحمد الثالث؛ فرغم أن المعاهدة تضمنت بنودا في صالح العثمانيين، فإن العثمانيين في إسطنبول شعروا بسخط شديد بسبب الهزيمة. وتحولت الصورة الإيجابية السابقة للسلطان من وجهة نظر الشعب إلى صورة سلبية.

عمل بفن الخط بجامع أولو (المسجد الكبير) في بورصا

وجاءت الأعوام التالية مليئة بالأحداث السلبية؛ فقد استعاد القائد الأفغاني نادر شاه المدن الفارسية التي سيطر عليها العثمانيون وقتلوا الجنود العثمانيين الذين عاشوا في تلك المدن، كما فُرضت ضرائب جديدة لدفع المصاريف العسكرية التي استهلكت أساسا في الحملات على فارس، وأغرقت موجة من الهجرة الداخلية مدينة إسطنبول لأن المناطق الريفية في الأقاليم اندلعت فيها أعمال تمرد بالغة الخطورة. وبالإضافة إلى كل ذلك أدت مشكلات اقتصادية واجتماعية أخرى مختلفة إلى تضخيم رد فعل عنيف وعام تجاه الحكومة. سميت تلك الفترة بـ"حقبة التوليب" (Lâle Devri)(١٧١٨-١٧٣٠) حيث راجت زراعة تشكيلات غنية من زهرة التوليب في الكثير من حدائق إسطنبول، وانغمس السلطان ورجال الدولة في الترويح عن أنفسهم بإقامة الكثير من الحفلات. وبسبب تلك الحفلات بالإضافة إلى تعيين الصدر الأعظم وكبير القضاة أقاربهم في المناصب الإدارية العليا عانت الإدارة العثمانية من موجة انتقاد عنيفة من قبل كبار موظفي الدولة والعلماء والعامة. وبعد ضياع فترة من الصمت لم تفعل الحكومة العثمانية خلالها شيئا على الإطلاق لاستعادة الأراضي المفقودة في بلاد فارس حديثا، نشبت ثورة بدأها بَطْرونا خليل الألباني عام ١٧٣٠. وأُعدم الصدر الأعظم نَوْشَهِرْلِي إبراهيم باشا، لكن إعدامه لم يهدئ المتمردين. وفي نهاية المطاف خُلع السلطان ونُصّب مكانه محمود الأول، ابن أخيه.

احتُجز أحمد الثالث وأبناؤه الأمراء في جناح الشِّمشِيرْلِيك بالقصر. وخلال نزوله عن العرش أوصى السلطان أحمد الثالث السلطان الجديد محمود الأول بأن يدير الدولة بنفسه وألا يثق بأحد أبدا. وعاش السلطان أحمد الثالث لِسِتّ سنوات أخرى ثم توفي في محبسه في ٢٤ يونيو/حزيران عام ١٧٣٦. ودُفن جنازته بالقرب من المسجد الجديد، بمقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان، جدته لأبيه.

أجمع المؤرخون على أن فترة حكم السلطان أحمد الثالث شهدت تنفيذ العديد من الإصلاحات ذات التوجه الغربي لأول مرة في التاريخ العثماني. وقد غيّرت الإصلاحات، التي بدأت خلال سنوات حكمه

السابعة والعشرين، أسلوب الحياة في إسطنبول بشكل كبير. ويرجع ذلك جزئيا إلى التقرير الذي كتبه يِرمِيسَكِيزْ شلبي محمد أفندي، السفير العثماني في باريس، والذي خدم بالكتيبة الثامنة والعشرين بفيلق الانكشارية وأصبح يلقب طوال حياته بلقب يِرْميسَيكِيز (أي ثمانية وعشرين). وقد تزامن مع حقبة التوليب إقامةُ العديد من حدائق التوليب والسرادقات الأنيقة وقصر سادآباد (كاغد خانه) على ضفاف نهر كاجيثان الذي يصب في القرن الذهبي. وأصبحت المنطقة بأسرها تعرف باسم "ساداباد".

كان السلطان محمد الثالث مهتما اهتماما شديدا بالزهور والحدائق، وساعد على ازدهار زراعة النباتات المزهرة، كما جعل بائعي الزهور مهنيين محترفين يتقاضون أجرا لائقا. وارتقت زهور التوليب على وجه الخصوص في نظر العثمانيين إلى مكانة عالية ومحترمة غير مألوفة بالنسبة لها في بلادها الأصلية. غير أن الإنجاز الحضاري الأجدر بالملاحظة كان افتتاح مطبعة لنشر الكتب باللغة التركية العثمانية لأول مرة في التاريخ العثماني. ورغم أن غير المسلمين كانوا يديرون عدة مطابع في جميع أنحاء الدولة -وبخاصة في إسطنبول وإزمير وسلانيك وحلب- فإن أيا منها لم يكن مملوكا لمسلمين. فتشارك إبراهيم متفرقة مع سعيد أفندي ابن يرميسيكز جلبي محمد أفندي، وقاما بإذن من السلطان أحمد الثالث بإنشاء أول مطبعة تنشر الكتب والكتيبات باللغة التركية العثمانية، وكان ذلك عام ١٧٢٧. كما افتُتح مصنع للورق في يَالُوَا جنوب بحر مرمرة، ومصنع خزف في قصر تكفور بإسطنبول، ومصنع نسيج بإسطنبول. وبالإضافة إلى ذلك طُبق نظام الحجر الصحي لأول مرة في تلك الفترة، حيث طبق الحجر الصحي على مسافري البحر لمنع انتشار الأمراض المعدية. وتم تنظيم وحدة لمكافحة الحرائق تابعة لفيلق الانكشارية لتسهيل إطفاء الحرائق بإسطنبول، والتي كانت أمرا مألوفا في ذلك الوقت، وكان ذلك عام ١٧٢٢.

كان السلطان أحمد الثالث خطاطا موهوبا درس هذا الفن بإشراف الفنان البارز حافظ عثمان. وخطّ أحمد الثالث أعمالا فنية كثيرة تزيّن اللوحات الموجودة أعلى نوافير المياه في أماكن شتّى بالعاصمة، بالإضافة إلى عدد ضخم من اللوحات بقصر "طوب قابي". وكان راميا بارعا أيضا، حيث تروي المصادر التاريخية أنه كان يستطيع إصابة عملة ذهبية على بعد خمسة وثمانين خطوة برمية دقيقة واحدة.

وخلال عهده رعى أحمد الثالث العديد من الشعراء ومن بينهم نديم الشاعر المشهور الذي يشار إلى شعره في كثير من الأحيان كمثال على روح حقبة التوليب. كما كتب السلطان نفسه قصائد شعرية باسم "نجيب". وتُرجم في عصره – للمرة الأولى في التاريخ العثماني – بعض الأعمال الفرنسية إلى اللغة التركية والعكس. واكتشف العثمانيون علاجا لمرض الجدري قبل الأوروبيين، بل نجح الأطباء العثمانيون في علاج السلطان منه ذات مرة.

افتتح السلطان أحمد الثالث عددا من المكتبات لتشجيع القراءة، وأقام واحدة باسمه في قصر "طوب قابي". كما شيد أسبلة ضخمة للشرب، أحدها بالقرب من أول البوابة الأولى للقصر (البوابة السلطانية)، والثانية في أوسكودار على السواحل الآسيوية لإسطنبول، والثالثة بالقرب من جاغَلايان بإسطنبول. وتخليدا لذكرى والدته ربيعة أمة الله جولنوش سلطانة شيد السلطان أحمد الثالث سبيل مياه رائع يسمى "جامع الوالدة الجديد"، ومكتبة بجواره أيضا بالقرب من مقبرة السلطانة الوالدة خديجة تُرخان بإسطنبول. وكذلك شيد أحمد الثالث مسجدين آخرين، أحدهما خارج قصر "غَلَطَة" على الساحل الشمالي للقرن الذهبي، والآخر في "بَبَكْ" على السواحل الأوروبية للبوسفور.

منذ عهد سليمان القانوني ظلت كسوة الكعبة الخارجية تصنع بمصر، وكسوتها الداخلية تصنع بإسطنبول. وبدءا من عهد السلطان أحمد الثالث بدأت تُغزل جميع الأقمشة بإسطنبول. وتولى السلطان إجراء أعمال إصلاحات وتجديدات بالمسجد النبوي في المدينة، مثله مثل أخيه السلطان مصطفى الثاني قبله، وكان يحب أن يرسل العطايا السلطانية بانتظام للمدينتين المقدستين.

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث ومرافقيه، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان أحمد الثالث وهو يشاهد احتفالا، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".